الفصل الثاني
التحقق بالمقامات والأحوال والمعرفة القلبية ودورها في التربية الأخلاقية للمسلم

١- مقام التوبة.
٢- مقام الزهد.
٣- مقام التوكل.
٤- مقام الشكر.
٥- مقام الإحسان.
٦- مقام التقوى.
٧- مقام الورع.
٨- مقام الخوف.
٩- مقام الصدق.
١٠- مقام الحياء.
١١- مقام التواضع.
١٢- مقام الرضا.
١٣- مقام المحبة.
١٤- مقام المراقبة والمحاسبة.
١٥- مقام الصبر.

واردات الأحوال:

١- حال القرب.
٢- حال اليقين.
٣- حال القبض والبسط.
٤- حال الفناء والبقاء.
٥- المعرفة الذوقية.
٦- تعقيب.

الفصل الثاني
التحقق بالمقامات والأحوال والمعرفة ودورها في التربية الأخلاقية للمسلم

يعمل السالك طريق الصوفية على أن يصحح مقامات سلوكه والسالك يترقى في المقامات والأحوال المختلفة وينزل منازل الطريق إلى الله حتى يتحقق بالكمال الأخلاقي ويتحقق بمعرفة الله معرفة قلبية.

والمقامات الصوفية تعني ما يتم به المريد من أنواع السلوك، الحميد ويصير راسخا لديه كنتيجة، وثمرة للمجاهدات والرياضات، فهي لا تخرج عن كونها حالات وجدانية خاصة تؤدي إلى فعل أخلاقي سلوكي، ينم عن توافق نفس واستقرار وجداني.

وقد عرف القشيري المقام بقوله : "والمقام يتحقق به العبد بمنزلته من الآداب مما يتوصل إليه بنوع تصرف ويتحقق له بضرب تطلب، ومقاساة تكلف"(١).

والسالك طريق الصوفية لا يتحقق بمقام من المقامات إلا إذا اصطنع ضربا من الرياضة له.

ولا ينتقل من مقام إلى آخر إلا إذا أدى أحكام المقام الذي هو متحقق به واستوفاه كاملا ويثبت أقدامه فيه. وفي تلك الحالة يمكنه أن يترقى إلى أحكام المقام الذي فوقه ويقول القشيري في ذلك :" فمقام كل واحد موضع إقامته عند ذلك.

وما هو مشتغل بالرياضة له وشرطه أن يرتقي من مقام إلى مقام آخر ما لم يستوف أحكام ذلك المقام، فإن من لا قناعة له لا يصح له التوكل، ومن لا توكل له لا يصح له التسليم، وكذلك من لا توبة له لا تصح له الإنابة، ومن لا ورع له لا يصح له الزهد(٢).

والمقامات تكون بإرادة السالك ويتعمد التحقق بها ولذلك قال الصوفية : المقامات مكاسب والأحوال مواهب؛ لأن الأحوال ترد على قلب السالك دون تعمد منه أو إرادة.

---

(١) القشيري: الرسالة، ص ٣٢.

(٢) القشيري: الرسالة: ص ٣٢.

فهي مشاعر يفيضها الله على قلبه ويوضح لنا ابن خلدون العلاقة بين المقام والحال: فالمقامات والأحوال تنشأ نتيجة المجاهدة المستمرة للنفس والأحوال التي تنتج عن مجاهدة النفس .

إما أن تكون نوعًا من العبادة قد رسخت ودامت في سلوك المريد، وفي هذه الحالة تسمى مقاما، وإما أن تكون انفعالاً نفسيًا سريعًا كالحزن والفرح والرضا وغيرها فتكون حالاً.

وإن المريد يتدرج في المقامات والأحوال إلى أن يصل إلى التوحيد الكامل، ويتحقق بالمعرفة القلبية لله، ويقول ابن خلدون في ذلك : "إن المريد في مجاهداته وعباداته لابد أن ينشأ له عن كل مجاهدة حال نتيجة تلك المجاهدة.

وتلك الحال إما أن تكون نوع عبادة فترسخ وتصير مقامًا للمريد، وإما أن لا تكون عبادة وإنما تكون صفة للنفس من حزن أو سرور، أو نشاط أو كسل، أو غير ذلك من الأحوال.

ولا يزال المريد يترقى من مقام إلى مقام إلى أن ينتهي إلى التوحيد والمعرفة التي هي الغاية المطلوبة"[1].

نخلص من ذلك إلى أن الحال إذا دام ورسخ وأصبح سلوكًا ثابتًا للسالك صار مقامًا وليس حالاً، فالحال شعور سريع ما يلبث أن يزول، أما المقام فهو دائم يرسخ في سلوك المريد.

ويختلف ترتيب المقامات من صوفي إلى آخر كل حسب تجربته الخاصة كذلك يختلف عدد المقامات عند كل منهم.

ولما كنا لا نتناول مذهب صوفي وإنما ينصب الحديث عن المقامات والأحوال بصفة عامة، فإنا سنبدأ بمقام التوبة لنوضح معنى التوبة، وما السند الشرعي الذي استمد منه الصوفية هذا المقام؟ وما يترتب على سلوك مقام التوبة من تغير في نفسية السالك وأخلاقه العملية؟ وسنتبع ذلك المنهج في تناول جميع المقامات الصوفية.

---

(١) ابن خلدون : المقدمة: ص ٣٩٨٩ – طبع مصر ١٣٨٦ هـ- ١٩٦٦م.

١- مقام التوبة:

يعتبر أكثر الصوفية مقام التوبة أول مقامات السلوك إلى الله، وأول خطوة في طريق الساعين إلى الحضرة الإلهية.

بل اعتبرها ابن القيم الجوزية أول المنازل وأوسطها وأخرها. فالتوبة عنده هي بداية العبد ونهايته وحاجة العبد إليها في النهاية ضرورية كحاجته إليها في البداية[١].

أما السهروردي البغدادي فيعتبر من صحت توبته على الكمال تحقق بسائر المقامات[٢].

ويقول الغزالي: " التوبة أول منزل من منازل السالكين وأول مقام من مقامات الطالبين، وحقيقة التوبة في لغة العرب "الرجوع" فيقال: تاب، أي: رجع.

فالتوبة الرجوع عما كان مذمومًا في الشرع إلى ما هو محمودًا فيه"[٣].

وحتى تصح فيما يرى القشيري لابد من توافر شروط ثلاثة هي : الندم على عمل من المخالفات، وترك الزلة في الحال، والعزم على ألا يعود إلى مثل ما عمل من المعاصي، فهذه الأركان لابد منها حتى تصبح التوبة وتصدق[٤].

ويعرف الغزالي التوبة بأنها "الرجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشر"[٥]. ويذهب إلى أن التوبة ضرورة أبناء آدم الذي وقع في العصية ثم تاب إلى ربه، فتاب عليه.

وذلك لأن الشر معجون مع الخير في طينة آدم عجنًا محكمًا – على حد تعبير الغزالي – لا يخلصه إلا إحدى النارين – نار الندم، أو نار جهنم.

فالإحراق بالنار ضروري في تخليص جوهر الإنسان من خبائث الشيطان[٦].

---

(١) ابن قيم الجوزية: مدارح السالكين ج٤ ص ٩٩.

(٢) السهروردي: عوارف المسالك، ص ٣٥٠.

(٣) الغزالي: الإحياء ج٤ ص ٢، تحقيق د. بدوي طباعة.

(٤) القشيري: الرسالة: ص ٤٥.

(٥) الغزالي: إحياء علوم الدين ج٤ ص ٢ تحقيق د. بدوي طبانة.

(٦) المرجع السابق نفس الصفحة.

ويرى أن نار الندم أهون بكثير من نار جهنم، وينصح باختيار أخف الشرين قبل أن يطوى بساط الاختيار، ويُساق في دار الاضطرار إما إلى الجنة وإما إلى النار.

وقد دأب الغزالي في حديثه من المقامات الصوفية أن يحللها تحليلاً دقيقًا لا نجده عند غيره من الصوفية.

وهو تحليل أقرب إلى ما نجده عند علماء النفس للسلوك الإنساني، فكما أن في علماء النفس يصفون مراحل السلوك الإنساني بأنها : إدراك ثم وجدان ثم نزوع، أو استجابة سلوكية.

نجد أن الغزالي يذهب إلى أن مقامات السلوك تنتظم من ثلاثة أمور مرتبة: علم ، وحال ، وفعل ، فالعلم الأول، والحال الثاني، والفعل الثالث، والأول موجب للثاني، والثاني موجب للثالث، إيجاب اقتضاء اطراد سنة الله في الملكوت كما يقول الغزالي[1].

وبالنسبة لمقام التوبة، فإن العلم هو معرفة عظم ضرر الذنوب، وكونها حجبًا بين العبد وبين كل محبوب.

فإذا عرف ذلك معرفة محققة بيقين غالب على قلبه نتج عن هذه المعرفة تألم للقلب، بسبب فوات المحبوب.

فإن القلب إذا شغر بفوات محبوبه تألم، فإن كان فواته بغفلة تأسف على الفعل المفوت.

فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه ندمًا، فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى عليه، انبعث منه في القلب حالة أخرى تسمى إرادة أو قصدًا أو فعل[2].

فمعرفة عظم ضرر الذنوب والمعاصي هي الخطوة الأولى وهذا إدراك وهذا الإدراك يترتب عليه شعور وجداني يسيطر على النفس وهو الندم الذي يستولي على القلب ويسبب الألم والحسرة على ما فاته من الطاعات وما ارتكبه من المخالفات.

---

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين ج٤ ص ٣.

(٢) الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٤ ص ٣.

وينتج عن هذا الوجدان نزوع عملي إلى فعل الخير والامتناع عن فعل الشر أو ما أطلق عليه الغزالي إرادة وقصد إلى فعل.

وهذا الفعل أو السلوك العملي، قد قسمه الغزالي بدوره إلى ثلاثة أحوال، تتعلق بالماضي والحاضر والمستقبل.

أما الماضي فيتلافى ما فات.

وأما الحاضر بالامتناع عن اقتراف الذنوب، والالتزام بالأعمال الصالحة.

وأما ما يخص المستقبل فبالعزم على عدم العودة إلى الذنوب فتكون توبة خالصة لله، ولا رجعة فيها[١].

وقد حث الله تعالى عباده على التوبة وطلب المغفرة في مثل قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ [المائدة: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا ﴾ [هود: ٣]. وقال تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [التوبة: ١٠٤]. وقال تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ ﴾ [النصر: ٣] وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ [النساء: ١٧].

وللرسول صلى الله عليه وسلم أقوال كثيرة في التوبة منها على سبيل المثال ما رواه أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الله أفرح بتوبة[٢] عبده من أحدكم سقط على بعيره[٣] وقد أضله[٤] في أرض فلاة"[٥].

---

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين ج٤، ص ٣ تحقيق د. بدوي طبانة.

(٢) المراد بالفرج: الرضا.

(٣) سقوط بعيره: أي عثر عليه وصادفه من غير قصد.

(٤) أضله: أي فقده.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ج٢، ص ٣٢٠، والكرماني ٢٢: ١٢٨- فتح الباري لابن حجر ١١ : ٩٦ ، عمدة القاري للعيني ١٠ : ٢٥٦، وشرح القسطلاني ٩ : ١٨١ – وأخرجه أبو داود في الأدب – والترمذي في الأدب والنسائي في اليوم والليلة، وابن ماجة في الدعاء.

ما يترتب على مقام التوبة من تربية المسلم أخلاقياً:

إن التحقق بمقام التوبة يبصر المسلم بعيوبه وينمي لديه شعورًا قويًا بالندم على ما بدر منه من أعمال وأقوال سيئة ويعظم عنده الشعور بالخطيئة.

والتوبة الصادقة تربي في التائب الشعور بالالتزام فهو يلتزم أمام الله بعدم اقتراف السيئات وتجنب الشرور، والإقبال على عمل الخير والطاعات.

فالالتزام بالتوبة يبعد المسلم عن الرذيلة ويقرن سلوكه بالفضيلة والأخلاق الكريمة، ويعلمه الوفاء بالعهد، ويقوي عزيمته ويشعره بالمسئولية الأخلاقية.

وليس من المبالغة في شيء القول بأن التوبة تخلق في المسلم شخصية جديدة، تنتج عن وقفة صادقة مع النفس، لمعرفة ما لها وما عليها، ينكشف فيها الطريق أمام التائب، فيبصره الله بعيوبه وينير بصيرته، فيرى الحق حقًا فيتبعه، ويرى الباطل باطلاً فيجتنبه، وبذلك يسير على الصراط المستقيم .

وهكذا يحدث تغييرًا جوهريًا في شخصيته وسلوكه، ولا ريب أن لذلك تأثيره الكبير على المجتمع فالإنسان التائب عن المعاصي والشرور هو مواطن صار صالحًا وملتزًما.

وإذا صلح الفرد صلح المجتمع الذي ما هو إلا مجموع الأفراد والعكس صحيح إذا أصر كل فرد في المجتمع على أخطائه، ولم يقلع عن الرذيلة شقي به المجتمع، وكان مصدرًا لكثير من المشكلات الاجتماعية، وعظم ضرره على من حوله ولم يسلم الناس من شره.

من ذلك يتضح لنا بجلاء أهمية التوبة، والرجوع عن الخطيئة والإقلاع عن المعاصي، ولهذا فإن الله تعالى فتح باب التوبة لكل تائب فهو سبحانه يغفر الذنوب جميعا إلا أن يشرك به.

٢- مقام الزهد:

قد كشف الله من بصائر الصوفية الغشاوة فبصرهم بحقيقة الدنيا، وكشف لهم أسرارها فزهدوا فيها وأبغضوها، وتركوا التفاخر بها، والتكاثر بأموالها وأعرضوا عن جاهها، وترفعوا عن ملذاتها، وتعالوا عن مباهجها، وأقبلوا بكل هممهم على حضرة الحق.

يقول الغزالي: "فإن الدنيا عدوة الله عز وجل بغرورها ضل من ضل ويمكرها ذل من ذل، فحبها رأس الخطايا والسيئات وبغضها أم الطاعات ورأس القربات"(١).

ولذلك يُعد مقام الزهد من أشهر وأهم مقامات الصوفية، وقد أشار الطوسي إلى ذلك بقوله : " إنه أساس الأحوال الرضية والمراتب السنية، وهو أول قدم القاصدين إلى الله عز وجل، فمن لم يحكم أساسه في الزهد، لم يصح له شيء مما بعده، لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة والزهد في الدنيا رأس كل خير"(٢).

ويقول أبو حيان التوحيدي : " يا هذا؛ إلى متى تنافس أهل الدنيا في الدعوى، ثم لا تنظر إلى حالك في العقبى؟ لِمَ لا تسلك الطريقة المثلى؟

ماذا يجيء من هذا التهافت وهذه الذلة، وهذا الجهل؟ كأنك ما رأيت بعينك عبرة، ولا حصلت لك بشيء خبرة؟ أما تستحي أن تستخدم عقلك الذي هو أشرف منح الله عندك لشهوتك التي هي أفضح الأشياء إليك؟

وما في قضاء وطر ساعة، وما في لذة منقطعة يبقى عارها ويرتهنك وزرها؟ يا عدو نفسه! يا جانيا على روحه... ما أدخلك من رشدك؟ وما أركبك لمطية غيرك"(٣).

ويذهب عبد الوهاب الشعراني في حديثه عن مقام الزهد إلى "أن غالب الناس ينظرون إلى ظاهر الدنيا دون ما في باطنها من السموم القاتلة والأباطيل والخداع والمصائد، ولذلك تزاحموا عليها وتكاثروا وتحاسدوا وتباغضوا"(٤).

---

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين جـ٤ ص ١٨٥.

(٢) الطوسي: اللمع ص ٧٢.

(٣) أبو حيان التوحيدي : الإشارات الإلهية ص ١٨٧ تحقيق د. عبد الرحمن بدوي.

(٤) عبد الوهاب الشعراني: لطائف المنن والأخلاق، ج١ ص ٧٠.

أما الصوفية المتحققين بمقام الزهد فقد استمسكوا بالتقوى، وساعدهم ذلك على التخلص من أهواء النفس كالغل، والحقد، والحسد، وغيرها من الأخلاق الذميمة، والزهد عند الصوفية يكون في المطعم والمشرب واللذات الحية من ناحية، وفي المناصب والمراتب من ناحية أخرى، وفي نظر الصوفية أن الطامع في الدنيا يكون عبدًا لها وليس عبدًا لله.

وللصوفي المصري عبد الوهاب الشعراني نظره طريقة في الزهد فهو يرى أن الصوفي إنسان يعيش في مجتمع ويتعامل مع أفراده ويتبادل معهم المصالح، وتربطه بهم الأعمال والتجارة.

فلابد وأن يعرف للأشياء قدرها وقيمتها، فيفرق بين الخسيس والثمين، وبين النفيس والرخيص، فلا يساوي بين التراب والذهب.

وعليه أن يعرف أن الذهب قد جعله الله للبيع والشراء وخصه تعالى بهذه القيمة دون غيره وله في ذلك حكمة، فلا يحق للسالك – والحال كذلك – أن يساوي بين الذهب والتراب من حيث قيمته المادية ودوره في الاقتصاد، فليس هذا هو المقصود بالزهد، وإنما المقصود بالزهد ألا يميل قلبه إلى الدنيا مع معرفته بقيمة كل شيء خلقه الله فيها.

وأضاف إليه تلك القيمة فيعرف مثلا قيمة الذهب ولكن معرفته هذه لا تكون داعيًا لميله إليه ولتهافته على جمعه بالطرق غير المشروعة، وإذا كان يمتلك منه شيء وسُلِبَ منه لا يتغير لذلك، وهذا هو معنى الزهد عند الشعراني[1].

ومن الآيات القرآنية التي يستند إليها الصوفية في سلوكهم مقام الزهد قوله تعالى : ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧]. وقوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤] وقال تعالى : ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران:١٨٥] وقال تعالى : ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنفال : ٦٧] وقال تعالى : ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [الكهف: ٢٨].

---

(١) عبد الوهاب الشعراني: كشف الحجاب ص ١١٧.

أثر الزهد والتقشف على التربية الأخلاقية للمسلم:

الزهد والتقشف ينمي في نفس المتحقق بهما إنكار الذات، فلا تكون مطالبة الشخصية هي فقط موضع اهتمامه ولا ينغمس في إتباع لذاته بإسراف.

ولا يقتصر تفكيره في ذاته دون الاهتمام بمن حوله بل إنه يفضل غيره على نفسه فهو يتمتع بالإيثار وحب الناس، والقناعة، والرضا، والتواضع.

هذا إلى جانب أن الزاهد الذي لا يشغله إشباع أهواء نفسه وشهواتها يضعف ذلك من بشريته ويقوي روحانياته فتسمو مشاعره وتتهذب نفسه ويرق قلبه.

ولا يطمع فيما في أيدي الناس، ولا يحسدهم عليه فإن زهده يحول دون ذلك، ويصير إنسانًا معطاء يجود بما يملك على الفقراء والمحتاجين كما ينمي الزهد لديه الشعور بالتعاون، فهو لا يبخل بتقديم المعونة للغير ومساعدتهم في قضاء حوائجهم وحل مشكلاتهم.

وهو لا شك ينظر إلى الأشياء بمنظاره الخاص فهو يقدر تمامًا القيم الروحية والمبادئ الأخلاقية.

أما القيم المادية فلا تشغله فهو يرى الأولى دائمة والثانية زائلة؛ ولذلك فالمتحقق بالزهد لا يدخل في صراعات للحصول على منفعة مادية.

وإذا سعى للوصول إلى منصب أو مركز فيكون ذلك بأشرف الطرق وأكثرها شرعية، فهو عفيف النفس له تطلعات عظيمة ومبادئ أخلاقية لا يتخلى عنها تحت أي ظرف من الظروف؛ لأن هدفه الأسمى هو ابتغاء مرضاة الله، وتقوى لديه القدرة على التفرقة بين الأمور الزائلة والأمور الدائمة.

ويترتب على ذلك أن يكون أبعد الناس عن الغش في تجارته أو استغلال المستهلك إذا كان تاجرًا، أو بيع سلع فاسدة للناس، أو استغلال حاجتهم المادية، فيقرضهم بفوائد أو يشتري منهم سلعهم بأبخس الأثمان مستغلاً ظروفهم وحاجتهم إلى المال.

فهو دائمًا يحرص على أن يكون رزقه حلالاً طيبًا ليس فيه اغتصاب لحقوق الآخرين أو ابتزاز لهم أو تلاعب بأقواتهم أو الاتجار فيما يضرهم ابتغاء الكسب السريع أو ما شابه ذلك من ألاعيب التجار الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم.

كذلك فإن المتحقق بمقام الزهد يكون أبعد الناس عن التعامل بالرشوة، المحسوبية فهو لا يرشي ولا يرتشي في قضاء حوائج الناس أو حوائجه.

وذلك خوفًا من ربه وزهدًا عما في أيدي الناس، وهو لا يذل نفسه لأحد من ذوي السلطان، لمعرفته أن الله وحده هو الذي يمسك الأرزاق.

وهو إنسان حريص على أن يكسب قوته بجهده فاليد العليا خير من اليد السفلى.

وإذا اؤْتُمِنَ على عمل أو مال كان أكثر الناس حرصًا على أداء العمل الذي وكل إليه على الوجه الأكمل، ابتغاء مرضاة الله وكان أكثر الناس صونًا للأمانة.

وهو ليس في حاجة إلى رقيب فهو يتعامل أساسًا مع الله وإذا اقتضى عمله أن يكون بحوزته أموالاً يقضي بها مصالح الناس فإنه لا ينقصها إلا فيما رصدت له من أوجه الصرف، ويكون قدوة حسنة لمن يتعاملون معه في النزاهة والأمانة والقناعة.

٣- مقام التوكل:

ويصحح الصوفية سلوكهم بالتوكل على الله، والتوكل مقام شريف من المقامات الصوفية، والفكرة الأساسية من التوكل هي أن جميع أفعال العباد خلقا لله بإرادة تامة وهي في نفس الوقت مضافة إلى العبد.

والتوكل قائم على التوحيد الخالص، فإذا كان الإنسان موحدًا صح توكله، يقول الغزالي : "التوكل من أباب الإيمان، وجميع أبواب الإيمان لا تتم إلا بعلم وحال وعمل، والتوكل كذلك ينتظم من علم هو الأصل وعمل هو الثمرة، وحال هو المراد باسم التوكل.

فلنبدأ ببيان العلم:

وهو المسمى إيمانًا في أصل اللسان، إذ الإيمان هو التصديق، وكل تصديق بالقلب فهو علم وإذا قوي سُمي يقينا.

وأبواب اليقين كثيرة، ونحن إنما نحتاج منها إلى ما نبني عليه التوكل، وهو التوحيد الذي يترجمه قولك: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير[١].

ولابد في تناولنا لمقام التوكل أن نفرق بين التوكل والتواكل، فهناك فرق كبير بين التوكل بمعناه الصوفي وهو الثقة التامة بالله والاعتماد عليه.

وبين التواكل وهو التكامل، والتقاعد عن طلب الرزق، أو الأخذ بالأسباب، وقد سُئِلَ ذو النون المصري (٢٤٥ هـ أو ٢٤٨هـ) عن التوكل، فقال: "التوكل ترك تدبير النفس والانخلاع عن الحول والقوة"[٢].

ويقول عبد الوهاب الشعراني في التوكل: "الرزق من عند الله، ويجب ألا نعقد له كل مرصد إيمانًا بأن ما قسمه الله تعالى لا تقدر أهل السماوات والأرض على أن يردوا

---

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين جـ٤ ص ٢٤٠.

(٢) السلمي: طبقات الصوفية ص ١٠.

عنا منه ذرة، ويجب ألا نتعاطى أسباب تعطيل الرزق، وأن نجتهد في طلب الحلال لنأكل منه ونلبس منه، وننفق على أولادنا وإخواننا"[١].

ويقول أبو حيان التوحيدي في التوكل : " لا معرج إلا على باب الله، ولا ظن بحسن إلا بالله، ولا أمل يصح إلا في الله، ولا رجاء يستقيم إلا فيما عنده، ولا خير يحق إلا من الله ولا توكل إلا على الله، ولا نجاة إلا بروح الله، ولا أنيس إلا بكرامة الله، ولا سكنى إلا إلى جوار الله، ولا أمن إلا في حرم الله، ولا توجه إلا إلى كعبة الله، ولا غنى إلا من خزانة الله، ولا فوز بالجنة إلا بتفضل الله، ولا خلاص من النار إلا برحمة الله"[٢].

ويقول عبد الوهاب الشعراني أيضًا: " ليس في الوجود طاعة ولا عصيان، ولا ربح ولا خسران، ولا عبد ولا حر ، ولا حياة ولا موت، ولا حصول ولا فوت، ولا نهار ولا ليل، ولا اعتدال ولا ميل، ولا أرض ولا سماء، ولا تركيب ولا تحليل، ولا غداة ولا أصيل، ولا بياض ولا سواد، ولا سهاد ولا رقاد، ولا طاهر ولا باطن، ولا متحرك ولا ساكن، ولا يابس ولا رطب، ولا قشرة ولا لب، ولا شيء من جميع المتضادات والمختلفات والمتبادلات إلا هو مراد للحق جل وعلا "[٣].

ولما كان الصوفية يؤمنون بأن الأمر كله بيد الله فجعلوا في آدابهم ترك التدبير والتوكل على الله، مع العمل بما أمر الشارع والأخذ بالأسباب وعدم الاحتجاج بالقدر والطمأنينة إلى كفايته.

ولذلك عرف السهروردي التوكل بأنه: " السكون إلى وعد الله"[٤].

وعرفه أيضًا بأنه: " الاكتفاء بالله والاعتماد على الله في جميع الأمور"[٥].

وكلما كان الإنسان قريبًا من ربه زاد توكله عليه، وكان الله حبه ووكيله في كل شيء.

---

(١) عبد الوهاب الشعراني: لواقح الأنوار القدسية في العهود المحمدية ج١ ص ٢٢.

(٢) أبو حيان التوحيدي: الإشارات الإلهية ص ٨٥ تحقيق د. عبد الرحمن بدوي.

(٣) عبد الوهاب الشعراني : الصفات الكشفية ص ٨٠٧.

(٤) السهروردي: عوارض المعارف ص ٤٣٥.

(٥) السهروردي: رسالة جذب القلوب إلى مواطن المحبوب ص ٢٧.

ومن الآيات القرآنية التي اعتمد عليها الصوفية في التوكيل قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة: ٥١]، وقوله تعالى : ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقوله لرسوله الكريم : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣] وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [إبراهيم: ١٢].

أثر التحقق بمقام التوكل على الله في سلوك المسلم:

التحقق بمقام التوكل يكون نتيجة إيمان يقيني للمسلم بوجود قوة قادرة عظيمة جبارة تمسك بدفة الأمور بمنتهى الدقة، وتسيرها بطريقة منظمة محسوبة، بإرادة أزلية لا تتجدد ولا تتغير، وهي قوة وإرادة الحق سبحانه وتعالى، الذي إرادته هي فعله، فإنه تعالى يقول للشيء كن فيكون، كما أن التوكل يكون نتيجة إيمان الصوفي بأن الله القوي العادل هو الذي أمر الإنسان أن يأخذ بالأسباب، وألا يتكاسل، وأن يبذل كل ما في وسعه سعيًا لتحقيق أهدافه والوصول إلى ما يربو إليه حتى تعمر الأرض.

ولذلك فقد حث الله الإنسان على العمل في مثل قوله تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ [الكهف: ٧]، وقال تعالى : ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾ [الكهف: ٣٠]. وقال تعالى : ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ [هود: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وطلب إليه أن يكون سعيه هذا مقرونًا بالتوكل عليه تعالى، فعلى الفرد أن يعمل ويؤدي دورًا إيجابيًا نشيطًا مخلصًا في الحياة، دون تهاون أو تكاسل، ثم بعد ذلك يترك الأمر لله.

فالمسلم له دوره وهو العمل الجاد المخلص، والحق سبحانه وتعالى له الدور الأعظم بعد ذلك فيكلل جهود العاملين بالنجاح والتوفيق، فيجنون ثمرة أعمالهم الصالحة.

وقد أشار الحق تعالى إلى هذين الدورين في قوله: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥] وإذ لم يقم الإنسان بدوره، فهذا هو التواكل وهو لا يتماشى مع أمر الله جل جلاله لعباده من بذل الجهد.

وهنا يطفو السؤال الذي يفرض نفسه، وهو ما جدوى التوكل على الله ما دام الإنسان يعمل ويبذل ما في وسعه؟ أليس هذا يكفي وحده لوصول الإنسان إلى تحقيق أهدافه دون الاعتماد على الله؟

وللإجابة على ذلك أقول: إن الله حين أمر الإنسان المسلم بالتوكل عليه يعلم سبحانه حق العلم بجدوى ذلك التوكل وهو ما يمكن إيجازه فيما يلي:

إن شعور الإنسان وهو يسعى للطمأنينة والاستقرار النفسي يدفعه إلى مزيد من العمل دون قلق أو اضطراب إيمانًا منه بقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

وبأنه سبحانه لا يحب القنوط من رحمة الله، وهو بذلك يعمل وهو يحدوه الأمل في توفيق الله.

فإذا وفقه الله شكره وحمده، وإن لم يوفقه لا يتملكه اليأس والقنوط؛ لأنه يؤمن بأن ما حدث له كان بإرادة الله، الذي له إرادة نافذة ولا راد لقضائه فيحمده أيضا في هذه الحال.

ويرى في قضاء الله خيرًا قد لا يكون متبينًا له إيمانًا منه بقوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ﴾ [البقرة: ٢١٦] ويعلم أنه إذا لم يجن ثمرة عمله في الدنيا، فإن له ثواب الآخرة على كل أعماله الخيرة أي كان نوعها إيمانًا منه بصدق قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

هذا كله يدفع المسلم المتوكل على الله إلى أن يعمل مطمئن النفس قرير العين، على عكس الإنسان الذي لا يؤمن بالله ولا يتوكل عليه فهو يشعر دائمًا بالقلق على نتائج أعماله.

ولا يشعر بأن ورائه قوة عظيمة يعتمد عليها ويكل أمره إليها، تثيبه على عمله النافع وتطعمه ثماره، إما في الدنيا أو في الآخرة، فهو لذلك يؤدي عمله وهو قلق على نتائجه وإذا لم يوفق إلى ما كان يرجوه شعر بالإحباط والقنوط واليأس.

فالإنسان المتوكل على الله يعمل، وكذلك الإنسان غير المتوكل على الله يعمل، ولكن شتان بين هذا وذاك، فالأول يعمل وهو يسقط تدبيره ويترك تدبير الأمور لله وحده.

أما الثاني فإنه يعتقد خطأ أنه مدبر الأمور، وصانع الأقدار والنتائج، وهذا يجعله أكثر قلقًا، وإذا أحبطت أعماله أو فشل في شيء قد يؤدي ذلك إلى شعوره بالفشل واليأس والإحباط ، ومن هنا يتضح دور التحقق بمقام التوكل في التربية الأخلاقية للمسلم.

٤- مقام الشكر:

الصوفي إنسان شاكر لله يحمده تعالى في السراء والضراء، فإذا صح توكله على الله صح شكره له، والشكر هو الإقبال على الله تعالى والثناء عليه والتحدث بنعمه والاعتراف بفضله.

يقول السهروردي البغدادي: "الشكر الاعتراف بالعطية، والانصراف عن الخطيئة"(١).

ويقول الغزالي : اعلم أن الله قرن الشكر بالذكر مع أنه قال: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾(٢) فقال تعالى : ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾(٣).

ويستوجب الشكر عند الصوفية طاعة الله وعدم معصيته ويقول السهروردي في ذلك: " وباطن الشكر أن تستعين بالنعم على الطاعة ولا تستعين بها على المعصية، فهو شكر النعمة "(٤).

ويقول القشيري : " حقيقة الشكر على هذه النعم الغيبة عنها بالاستغراق في شهود المنعم "(٥).

ويقول أبو حيان التوحيدي : " يا هذا؛ أما ترى نعم الله عليك نازلة ، وخيراته إليك واصله، ومباره لديك متكاملة، تارة في اليقظة، وتارة في المنام، أما في اليقظة فإنه يجلو عليك هذا الملك البسيط حتى تشهد الكواكب المتلألئة بالليل الجارية بحقائق المشيئة الدانية إلى سنن الإرادة مع عجائب غيرها، أما في المنام فإنه يعرض عليك الأمور لعبارتها (أي لتفسيرها) فاجتهد أن تعرف المغزى في جمعها"(٦).

---

(١) السهروردي: جذب القلوب إلمواطن المحبوب ص ٤٧.

(٢) العنكبوت آية ٤٥.

(٣) سورة البقرة آية ١٥٢.

(٤) الغزالي: مكاشفات القلوب المقرب إلى حضرة علام الغيوب ص ١٣١.

(٥) السهروردي : عوارف المعارف ص ٤٤٧.

(٦) أبو حيان التوحيدي: الإشارات الإلهية ص ٢٠٤، تحقيق د. عبد الرحمن بدوي.

ويقول الغزالي : " اعلم أن الشكر من جملة مقامات السالكين، وهو أيضًا ينتظم من علم وحال وعمل، فالعلم هو الأصل فيورث الحال ويورث العمل، فأما العلم فهو معرفة النعمة من المنعم، والحال هو الفرح الحاصل بإنعامه، والعمل هو القيام بما هو مقصود للمنعم ومحبوبه، ويتعلق ذلك العمل بالقلب والجوارح وباللسان "(١).

ومن الأسانيد التي استند إليها الصوفية في مقام الشكر قوله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤]، وقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [آل عمران: ١٤٥]، وقال تعالى : ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ:١٣].

وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة فقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٧٤] وقال: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يونس: ١٠].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الشكر الحمد لله "(٢).

---

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين ج٤ ص ٧٩، تحقيق د. بدوي طبانة.

(٢) رواه ابن ماجه في سننه ح٢ ص١٢٤٩ تحت رقم (٢٨٠٠) باب فضل الحامدين كتاب الأدب.

دور التحقق بمقام الشكر في التربية الأخلاقية للمسلم:

التحقق بمقام الشكر يربي في المسلم الاعتراف بالجميل والعرفان والامتنان، وتقدير النعمة، ويحمله على أن يحاول جاهدًا رد الحسنة بالحسنة.

ومن كان شاكرًا لا يقابل الحسنة بالسيئة، وإنما يقدر نعم الله عليه حق التقدير ويرضي بها ويحمده عليها ويشكره.

ويكون ذلك بالتزام الطاعات والعبادات، وإذا قدم له أحد معروفًا فإنه لا يجحده، وإنما يعرف له جميله، ويعمل على رده شاكرًا عملاً بقوله تعالى : ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النساء: ٨٦].

وهو يشعر دائمًا بأن ما يقدمه لله من شكر على نعمه أقل بكثير مما يجب، وأنه عاجز عن تقديم طاعات توازي نعم الله عليه، وهذا يدفعه لمزيد من الأعمال الصالحة والعبادات.

وينعكس هذا بدوره على معاملته وسلوكه مع الناس، فيكون أكثرهم عرفانًا بالجميل، ولا يجحد معروفًا يقدمه أحدهم إليه مهما صغر أو قل.

٥- مقام الإحسان:

يتحقق الصوفية بمقام الإحسان، وهو يعني "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك" وهذا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سأله جبريل ما الإحسان؟

والتحقق بمقام الإحسان يقتضي أن يطابق قصد الإنسان وعمله الشرع وما أمره الله به، وهو مترفع عن طلب العوض أو المكافأة أو الأجر.

والمتحقق بمقام الإحسان إذا أقدم على عمل ما أتمه على الوجه الأكمل دون رقيب ودون انتظار لشكر أو ثناء، ودون ابتغاء فرض أو منفعة، فإن جل أعماله من عبادات ومعاملات تكون لوجه الله تعالى.

ويقول عبد الوهاب الشعراني : " يكون قصده مطابقًا لما أمر الله به في شريعته ويحكم عزمه حتى لا تتغير نيته ويصفيها من ثوب الرياء، وطلب العوض وعلة الغرض"(١).

وحقيقة الإحسان أن يرى السالك المتحقق بهذا المقام أن كل أفعاله ليست من خلقه ولا نتيجة لاجتهاده، فإن العمل والاجتهاد من توفيق الله.

فإذا قدره الله على عمل شيء من الخير أو العبادات أو الطاعات فإن واجبه ألا يظهرها أمام الناس أو يباهي بها حتى يقاوم آفات نفسه وأهوائها.

يقول عبد الوهاب الشعراني : " إن من معاني الإحسان أن يرى المحسن حسن الأحوال بأن يراها من الله، لا من عمله واجتهاده، فإن العمل والاجتهاد هو أيضًا من الله، ولا يظهر تطرفًا حتى ينزه نفسه من العيوب وآفة الدعوة وطلب النجاة والكرامة عند الناس، فالإحسان هو النزهة عن دنس أمثال هذه النقائض"(٢).

---

(١) عبد الوهاب الشعراني : حياة الأرواح ونجاة الأشباح: مخطوطة بمكتبة الأزهر تصوف رقم (٤٩٢) حليم ل ٢٥ظ.

(٢) عبد الوهاب الشعراني: حياة الأرواح ونجاة الأشباح: مخطوطة بمكتبة الأزهر تصوف رقم (٤٩٢) حليم ل ٢٥ ظ.

ومن الآيات القرآنية التي استند إليها الصوفية في سلوكهم مقام الإحسان قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل: ١٢٨].

وقوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ [البقرة: ١١٢] وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء: ١٢٥] وقال تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الرحمن: ٦٠] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [النحل: ٩٠].

أثر التحقق بمقام الإحسان على سلوك المسلم:

التحقق بالإحسان يزرع في المسلم الشعور بالمسئولية وينميه ويحثه على الإخلاص في العمل دون رقيب من البشر، لأنه يعلم بأن الله يراه، وهو يحاسب نفسه قبل أن يحاسبه أحد.

فالإحسان يولد لديه شعورًا قويًا بالالتزام، ويجعل الرقابة على أعماله وسكناته تكون تابعة من ذاته، وذلك لأنه يعتقد اعتقادًا راسخًا بأن الله معه في كل حين وكأنه يرى الله تعالى.

ومن يكون هذا شهوده ومعتقده، فإنه يراقب ربه في كل حركاته وسكناته، وفي عباداته ومعاملاته، وفي أقواله وأفعاله، حبًا منه لله وخوفًا وحياء منه تعالى وهو على يقين بأن الله يراه، ومن هنا فهو لا يعبأ بمراقبة البشر له، فيؤدي ما يطلب منه وما يناط به من أعمال على أكمل وجه.

وإذا كان ذلك كذلك فالمسلم المتحقق بمقام الإحسان يكون إنسانًا منتجًا يتقن عمله دون رقيب ودون تقصير في صمت وإتقان، إرضاء لربه ولضميره، وتلك أجمل الصفات التي يستحب أن تتوفر في الإنسان الصالح، والعامل الناجح.

والمتحقق بمقام الإحسان يكون أبعد الناس عن الرياء والنفاق لرؤسائه في العمل، وإنما يتمتع بشخصية متزنة مستقلة صريحة، واضحة، واثقة من نفسها ثابتة الخطى، وهو لا يبتغي جزاء ولا مكافأة سوى رضا الله وعفوه، فهو يعمل الواجب لذاته.

والمتحقق بمقام الإحسان ينمو عنده استعدادًا قويًا للتضحية والفداء والبذل والعطاء في صمت.

٧- مقام التقوى:

التقوى من مقامات الصوفية التي يصححون بها مقامات سلوكهم إلى الله، وهي تعني أن يرعى السالك ربه في كل شيء، في علاقته مع ربه، وفي علاقته مع الناس، ويقيس أفعاله وأقواله على الشريعة، ويصحح مقامات سلوكه وفقًا لما يرضاه الله.

يقول أبو حيان التوحيدي : " يا هذا؛ عد من ذكر قوم بانوا بأشخاصهم وأرواحهم، وإن كانوا أبقوا عندنا من تراثهم ما يشوقنا إلى اللحاق بهم، واسمع من أخصك بذكره، وأريد نفس أيضًا معك في عرضه، إذا نفحت في صدرك نفحة من نفحات روض التقوى من العالم الأعلى فارقد عليها وتلذذ بطعمها واستدم نسيمها من معدنها ... ولا سبيل لك إلى ذلك إلا برفض الرذائل كلها قليلها وكثيرها، وتحلى بالفضائل بأسرها: دقيقها وجليلها.

وهذه التقوى الإلهية، متى حركت نفسك إليها وحليت بزينتها وبرزت ببهجتها زادتك ملائكة السماء بالتحية، وأهدت إليك العطية بعد العطية، وكرمت بين البرية، وصرت إذا دعوت أجبت وإذا عملت أصبت وإذا توهمت حققت، وإذا قلت كان قولك مسموعًا، وإذا سعيت كان سعيك مشكورًا، وإذا عملت كان عملك مبرورًا"(١).

وقيل: "إن إبراهيم بن أدهم قال لرجل: أتحب أن تكون لله وليا وله تقيا؟ فقال نعم، فقال: لا ترغب في شيء من الدنيا والآخرة، وفرغ نفسك لله تعالى، وأقبل بوجهك عليه ليقبل عليك ويواليك"(٢).

وقد ذكر الله مقام التقوى في مثل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [المائدة: ١٠٨] وقال تعالى : ﴿بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ [البقرة: ٢٣١].

---

(١) أبو حيان التوحيدي: الإشارات الإلهية، ص ١٢٧.

(٢) القشيري: الرسالة ج٢ ص ٥٢٢، تحقيق د. عبد الحليم محمود، ومحمود الشريف.

دور التحقق بمقام التقوى في التربية الأخلاقية للمسلم:

المتحقق بمقام التقوى لا يتقي الله إلا من عقيدة راسخة، ومن كانت عقيدته راسخة فإنه يتمتع بالصفاء القلبي والاستقرار النفسي والطمأنينة.

كما أن تقوى الله تجعل من المسلم إنسانًا حريصًا في كل ما يصدر عنه من تصرفات أو أفعال على مرضاة الله.

فهو لا يظلم، ولا يكذب، ولا يفتن، ولا يظن ظن السوء، ولا يخادع، ولا يقصر في عمله، ولا يستحل لنفسه حق غيره، ولا يخلف وعدًا، ولا يقول ما لا يفعل، ولا يبغي على الضعفاء ويقف بجانبهم، ويحق الحق ولو كان به خصاصة، ويحب الناس، ويحب لهم ما يحب لنفسه، ولا يقرب الفواحش، ويلتزم بالأخلاق القويمة، وينبذ الأخلاق الذميمة؛ لأنه يراعي الله في كل قول يتفوه به وكل عمل يقوم به.

٧- مقام الورع:

ويتحقق الصوفي بمقام الورع ليصحح مقامات سلوكه، والورع هو تطهر القلب من دنس التعلق بالحرام، فيمتنع السالك من كل ما فيه شبهة، ويبلغ من التدقيق في ذلك مبلغه، ويقتضي ذلك ألا يأكل أو يستحق لنفسه ما فيه ريبة.

ويوجب مقام الورع أن يكون صاحبه صبور على الجوع، حتى يأتيه الله بالرزق الحلال الذي لا ريبة فيه.

وقال الجنيد: "الورع أن تتورع أن يشتت قلبك عن الله طرفة عين[١]".

وقال سليمان الداراني: "الورع أول الزهد كما أن القناعة طرفًا من الرضا".

وقال يحيى بن معاذ: "الورع الوقوف على حد العلم من غير تأويل".

وسُئِلَ إبراهيم الخواص عن الورع فقال : " ألا يتكلم العبد إلا بالحق، أغضب أو أرضى، وأن يكون اهتمامه بما يرضي الله تعالى".

وهكذا نجد الورع يختلف في مضمونه من صوفي لآخر، وحقيقة الورع عمومًا أن يتقي السالك الله في كل أفعاله وأن يراعي الله في سلوكه.

يقول السهروردي البغدادي : " إن الورع هو أن تفطن النفس عن التلوث بما يورث تبعه الخلق .. وتسليم العنان إلى إشارة القلب، وتقييد الجوارح لامتثال الأوامر واجتناب النواهي"[٢].

فعلى المتحقق بمقام الورع أن يكون رقيبًا على نفسه مميزًا للحلال والحرام، ولذلك يقول القشيري: "الورع هو ترك الشبهات"[٣].

ومن الآيات القرآنية التي استند إليها الصوفية في مقام الورع قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣] وقوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٣].

---

(١) انظر هذه التعريفات في عوارف المعارف للسهروردي ص ٣٣٨.

(٢) السهروردي : المسك المختوم ل ٢١٣٨ مخوط بدار الكتب المصري رقم ١٠٢٣ تصوف طلعت (مجاميع).

(٣) القشيري: الرسالة : ج٢ ص ٣١٥.

أثر التحقق بمقام الورع على سلوك المسلم:

يولد التحقق بمقام الورع في المسلم القدرة على التمييز بين ما يحق له الحصول عليه وما لا يحق، فهو لا يقرب الحرمات، ويبتعد عن كل ما فيه شبهة الحرام، فلا تمتد يده على شيء ليس من حقه مهما كان صغيرًا، فالمسلم الورع شديد التدقيق في أي شيء يستعمله سواء كان مأكل أو مشرب أو أموال أو ممتلكات خاصة بالآخرين أو خاصة بالدولة، أو ملبس أو خدمة من الخدمات، أو أي شيء يستفاد به على أي وجه من الوجوه، فهو أبعد ما يكون من اغتصاب حقوق الغير، أو أكل أموالهم بالباطل.

ولذلك تنمو لديه القدرة على التفرقة بين حقوقه وحقوق غيره، وهو على استعداد تام للتنازل عن بعض حقوقه التي قد تداخلها شبهة، حتى يطمأن نفسًا إلى أن كل ما يحصل عليه حلالاً طيبًا.

وهو أيضًا أبعد ما يكون عن الجور والظلم، محبًا للعدل ويقف إلى جانبه، وهو شديد الأمانة وموضع ثقة من الآخرين.

يرتاح الناس إلى معاشرته ويأنسوا لوجوده مصدقًا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللَّهُ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبُّكَ النَّاسُ " وهو لا يحسد الناس على ما متعهم الله به من النعم. ومن ذلك يتضح أهمية التحقق بمقام الورع.

٨- مقام الخوف والرجاء:

يتحقق الصوفي السالك الطريق إلى الله بالخوف من الله والرجاء في مغفرته وثوابه، ويقول الغزالي : " الرجاء والخوف جناحان، بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود ومطيتان بهما يقطع من طريق الآخرة كل عقبة كؤود[١].

والرجاء قد يكون حالاً إذا كان سريع الزوال، وقد يكون مقامًا إذا ثبت ودام، وكذلك الحال في الخوف.

وحقيقة مقام الخوف هو خشية الله عز وجل في كل فعل أو قول والخوف من غضبه وعقابه.

وكان أكثر الصوفية تحققًا بهذا المقام الحسن البصري (٢١ هـ- ١١٠هـ) فكان يقول: " إن المؤمن يصبح حزينًا، ويمسي حزينًا، ولا يسعه غير ذلك، لأنه بين مخافتين: بين ذنب قد مضى لا يدري ما الله يصنع فيه، وبين أجل قد بقي لا يدري ما يصيبه فيه من المهالك"[٢].

وكان يقول أيضًا: "ابن آدم؛ نفسك ، نفسك، إنما هي نفس واحدة، إن نجت نجوت، وإن هلكت هلكت، ولم ينفعك من نجا، وكل نعيم دون الجنة حقير، وكل بلاء دون النار يسير"[٣].

فالحسن البصري مؤسس مذهب الزهد القائم على الخوف، والتفكر الموصل إلى الإيمان وتصفية النفس.

والرجاء دواء يحتاج إليه رجلين كما يقول الغزالي[٤] : إما رجل غلب عليه اليأس فترك العبادة، وإما رجل غلب عليه الخوف فأسرف في المواظبة على العبادة حتى أضر بنفسه وأهله، فكلاهما يحتاج إلى التحقق بالرجاء.

---

(١) الغزالي : إحياء علوم الدين، ج٤ ص ١٣٨ تحقيق د. بدوي طبانة.

(٢) الشعراني: الطبقات الكبرى ج١ ص ٩٧.

(٣) الشعراني: الطبقات الكبرى، ج١ ص ٩٧ وأيضًا انظر حلية الأولياء ج٢ ص ١٣٢، ص ١٣٣.

(٤) الغزالي: إحياء علوم الدين ج٤ ص ١٥٤

والخوف هو النار المحرقة للشهوات فيما يرى الغزالي؛ فإن فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات، وبقدر ما يكف عن المعاصي ويحث على الطاعات، ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف(١).

وقال يحيى بن معاذ: " ما من مؤمن يعمل سيئة إلا ويلحقها حسنتان، خوف العقاب ورجاء العفو(٢)". وقال صلى الله عليه وسلم : "من خاف الله تعالى خافه كل شيء، ومن خاف غير الله خوفه الله من كل شيء"(٣).

وضد الخوف الأمن، وضد الرجاء اليأس، والمتحقق بهذين المقامين يخشى الله ولا يقنط من رحمته ومغفرته.

ومن الآيات التي يستند إليها الصوفية في تحققهم بمقام الخوف والرجاء قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ [الأنعام: ١٥] وقال تعالى : ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ [الأنفال: ٤٨]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ [الأنعام:١٥ ، الزمر: ١٣] وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾﴾ [الجن: ١٣] وقال تعالى : ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣].

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٧.

(٢) الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٤ ص ١٥٨، تحقيق د. بدوي طبانة.

(٣) رواه ابن حيان، في صحيحه وسنده ضعيف.

أثر التحقق بمقام الخوف والرجاء على التربية الأخلاقية للمسلم:

التحقق بمقام الخوف دافعًا لطاعة الله، والبعد عن المعاصي، والتزود بالأعمال الصالحة.

والمسلم الذي يخشى الله لا يخشى الناس مهما علت مراتبهم وعظم شأنهم، فهو يؤمن بالمساواة بين الناس على اختلاف درجاتهم في السلم الاجتماعي أمام الله، مع تباين جنسياتهم ولغاتهم، فلا فرق بين عربي ولا أعجمي إلا بالتقوى كما قال رسول الله (ص).

ويعلم أن العزة لله وحده الملك الجبار القهار، الذي يخضع له الجميع ويتساوى أمامه، الغني والفقير، وهو سيد الخلق الذي لا سيد معه، وهو وحده سبحانه صاحب السلطان والقوة القاهرة، التي يجب أن يعمل لها الإنسان كل حساب.

ومن هنا كان التحقق بمقام الخوف ثمرته طاعة الله والشجاعة والالتزام، وهو متولد عن قوة الإيمان وقوة اليقين.

والمتحقق بمقام الخوف وإن كان لا يخشى الناس إلا أنه يحترمهم ويكن لهم كل حب وتقدير، وهم يحبونه ويقدرون ما يتمتع به من حسن الأخلاق والصفات وعفة النفس والاعتزاز بالكرامة.

والمتحقق بمقام الرجاء إنسان متفائل يتوسم الخير ويتوقع أن يسبغ عليه الله نعمه وعفوه ورضاه، وهو إنسان ممتن لله على كرمه وعظيم فضله وسعة عفوه، وهذا ينطبق على سلوكه مع الناس، فدائمًا يتوقع منهم الخير، ويكون متفائلاً وعطوفًا ورحيمًا معهم.

٩- مقام الصدق:

يتحقق الصوفي بمقام الصدق في طريق سلوكه إلى الله، وإذا ما تحقق بهذا المقام كان صادقًا مع نفسه، صادقًا مع غيره، صادقًا مع الله، فقد اعتبر الصوفية الصدق عماد التصوف، قال الشعراني: " إن الصدق عماد الأمر وبه تمامه ونظامه"(١).

والصدق شرط في التحقق بالمعرفة الذوقية، فإن لم يكن المريد صادقًا في سلوك طريق القوم فإنه يكون مدعيًا غير مقبول من الله، ولا ينعم عليه ربه بالمعرفة الذوقية ولا يقربه من حضرته.

ومقام الصدق يوجب استواء السر والعلانية عند السالك المتحقق به، فيكون صادقًا في إظهار ما في سريرته حتى يصير ما ينبئ به هو عين ما يسره.

وقد استعمل الغزالي الصدق في ستة معان هي: "الصدق في القول، والصدق في النية والإرادة، والصدق في العزم، والصدق في الوفاء بالعزم، والصدق في العمل، والصدق في تحقيق مقامات الدين"(٢).

والنفاق مناف للصدق، والمتحقق بتمام الصدق لا ينقض العهد، ولا يصاحب المنافقين، ولا يداهن الآخرين، ولا يرائي، ويجتهد في الله من غير رؤية عمل.

وقال أحمد بن خضرويه الصوفي: "من أراد أن يكون الله معه فليلتزم الصدق؛ فإن الله تعالى قال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]"(٣).

وقال عبد الرحمن السلمي (ولد ٣٢٥هـ): "الصدق هو القول بالحق في مواطن الهلكة"(٤).

وقيل: "الصدق منع الحرام من الشدق".

والمتحقق بمقام الصدق ينطق بما في سره.

---

(١) عبد الوهاب الشعراني: حياة الأرواح ونجاة الأشباح ص ٣٢.

(٢) الغزالي: إحياء علوم الدين ج٤ ص ٣٥٧.

(٣) القشيري: الرسالة، ج١ ص ٤٤٨، د. عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف.

(٤) المرجع السابق ص ٤٤٩.

وقال سهل بن عبد الله التستري (ت : ٢٨٣ أو ٢٩٣هـ): "لا يشم رائحة الصدق عبد داهن نفسه أو غيره".

وقال الواسطي: " الصدق صحة التوحيد مع القصد ".

وقيل: ثلاثة لا تخطئ الصادق: الحلاوة، والهيبة، الملاحة.

ومن الآيات القرآنية التي استند إليها الصوفية في مقام الصدق قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ﴾ [المائدة: ١١٩] وقال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] وقال تعالى : ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ﴾ [الأحزاب: ٢٤].

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يَزَال العَبْد يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا، ولا يَزَال يَكْذِبُ، وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا".

أثر التحقق بمقام الصدق في التربية الأخلاقية للمسلم:

إن التحقق بمقام الصدق يجعل المسلم محبًا للحق، ويعمل دائمًا على إحقاقه، ويكون مبغضًا للباطل ويعمل على إزهاقه، كما أن الصدق يجنب صاحبه الرياء والنفاق والمداهنة والمواربة وعدم الصراحة.

فالمتحقق بمقام الصدق تقوى لديه حرية التعبير عن رأيه ويتسم في أفعاله وأقواله بالوضوح والصراحة التامة.

وهو إنسان محب للحقيقة واضح الأفكار، ويصل إلى أغراضه من أقصر الطرق، ولديه القدرة على تحديد أهدافه.

وهو إنسان مطمئن النفس لأنه صادق مع نفسه، ومحبوب لصدقه مع الآخرين، وقلبه مطمئن بالإيمان لأنه صادق مع ربه، وتحققه بمقام الصدق يجعل منه شخصية سوية موضع ثقة الجميع وموضع احترامهم.

١٠- مقام الحياء:

السالك طريق الصوفية يتحقق بمقام الحياء؛ لأن الحياء من الإيمان، والمؤمن يستحي من الله حق الحياء.

وحقيقة الحياء أن تستحي من الله فيما تسره في رأسك من أفكار، وفيما تظهره من أعمالك وأقوالك، وإذا اجتمع في السالك الهيبة والحياء من الله، كان صادقًا في حبه لله وخوفه من الله.

قال ذو النون المصري (٢٤٥ هـ، أو ٢٤٨هـ): "الحب ينطق، والحياء يسكت، والخوف يقلق"(١).

وقال السري السقطي : " إن الحياء والأنس يطرقان القلب، فإن وجدا فيه الزهد والورع حطا، وإلا رحلا"(٢).

وقال جرير: " تعامل القرن الأول من الناس بالدين، حتى رق الدين، ثم تعامل القرن الثاني بالوفاء، حتى ذهب الوفاء، ثم تعامل القرن الثالث بالمروءة، حتى ذهبت المروءة، ثم تعامل القرن الرابع بالحياء، حتى ذهب الحياء، ثم صار الناس يتعاملون بالرغبة والرهبة"(٣).

وقال أبو حيان التوحيدي: "أما تستحي ممن خلقك فسواك، وأرشدك فهداك، وتممك وقواك، وأعطاك وهناك، ثم وعدك ومناك، ثم خصك واجتباك، ثم علاك وحلاك، ثم رقاك وحياك، ثم ملكك وولاك، ثم أحضرك وأواك، ثم استخلصك وتولاك؟!"(٤).

وقال ذو النون المصري: " لله عباد تركوا الذنوب استحياء من كرمه بعد أن تركوها خوفًا من عقوبته، ولو قال لك: اعمل ما شئت فلست آخذك بذنب، كان ينبغي أن يزيدك

---

(١) القشيري: الرسالة، ج٢ ص ٤٥٥.

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٤) أبو حيان التوحيدي: الإشارات الإلهية ج (ص ٢٢ تحقيق د. عبد الرحمن بدوي).

كرمه استحياء منه، وتركًا لمعصيته، إن كنت حرًا كريمًا، عبدًا شكورًا... فكيف وقد حذرك"[١].

والمتحقق بمقام الحياء يلتزم بطاعة الله ويتجنب الذنوب استحياء من الله تعالى، وقال الجنيد عن الحياء: "رؤية الآلاء، ورؤية التقصير، فيتولد من بينهما حالة تسمى الحياء"[٢].

وفي الحياء انقباض للقلب وتعظيم للرب وإجلال.

والمتحقق بمقام الإحسان هو أكثر الناس حياء من ربه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣] وقال تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ [القصص: ٢٥].

---

(١) السلمي: الطبقات: ص ١١.

(٢) القشيري: الرسالة ج٢ ص ٤٥٩، تحقيق د. عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف.

أثر التحقق بمقام الحياء على سلوك المسلم:

التحقق بمقام الحياء يورث المسلم دماثة الخلق، ويجنبه الوقوع فيما يغضب الله، وفيما لا يحب أن يطلع عليه الناس من الأعمال المذمومة والأفكار الخبيثة.

والمتحقق بمقام الحياء يتمتع بأدب جم وأخلاق حميدة، ويحترم الشرع ويطيعه، ويحترم العرف العادات والتقاليد السائدة في مجتمعه، ويعرف المعنى الحقيقي للحرية، وهي تحرره من الرذيلة ومما يخجله أمام الله وأمام الناس، ويعرف المعنى الحقيقي للعبودية، وهو ألا يكون عبدًا لأهواء النفس وشهوات البدن، ويؤدي به ذلك إلى اتخاذ موقفًا حازمًا مع نفسه حتى لا يحيد عن الصراط المستقيم، وهو يحرص دائمًا على مرضاة الله، واكتساب رضا من حوله، وشدة حيائه تكسبه حساسية خاصة وحرصًا شديدًا في كل ما يصدر عنه من أقوال وأفعال.

١١- مقام التواضع:

التواضع مقام شريف من مقامات السلوك الصوفي يتحقق به السالكون فلا يرون شدة زهدهم وقوة إيمانهم وحسن عبادتهم وعظيم طاعتهم لله تعالى .

بل دائمًا يرون أن ما يقومون به من الطاعات وما يصطنعونه من رياضات ومجاهدات لا يوازي نعم الله عليهم، ويجدون أنفسهم مقصرين في حق الله عليهم.

كما أن المتحقق بمقام التواضع لا يستعلي على الناس ولا يرى أنه أشد منهم تمسكا بدينه، ولا يتباهى بما يمن الله عليه من الكرامات والأحوال، فمن تواضع لله رفعه، والله سبحانه وتعالى لا يحب المتكبرين الذين زاغوا فأزاغ الله قلوبهم، قال تعالى: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦] وقال تعالى : ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٧٣].

وقد سُئِلَ الفضيل بن عياض (ت ١٨٧ هـ) عن التواضع فقال : "أن تخضع للحق وتنقاد له، وتقبل الحق من كل من تسمعه منه"(١).

وقال ذو النون المصري: " من أراد التواضع فليوجه نفسه إلى عظمة الله، فإنها تذوب وتصفو، ومن نظر إلى سلطان الله ذهب سلطان نفسه؛ لأن النفوس كلها فقيرة عند هيبته"(٢).

وقال أبو عبد الله الحارث المحاسبي (ت ٢٤٣هـ): "صفة العبودية ألا ترى نفسك ملكًا، وتعلم أنك لا تملك لنفسك ضرًا ولا نفعًا"(٣).

---

(١) السلمي، طبقات الصوفية ص ٩.

(٢) المرجع السابق، ص ١٠

(٣) المرجع السابق، ص ١٦.

دور التحقق بمقام التواضع في التربية الأخلاقية للمسلم:

التحقق بمقام التواضع ينمي لدى المسلم الشعور بضعفه أمام عظمة الله، وبقوته أمام الظالمين من العباد، وهو يكره التعالي على الناس.

والمتحقق بمقام التواضع يبصره الله بعيوبه، ويؤدي به ذلك إلى العمل على إصلاحها وتلافيها، وينشغل بذلك عن عيوب الناس، كذلك فهو يبدو في أبسط مظهر، لا يتفاخر بمظهره وملبسه، ولا يغتر بمنصبه وإن اعتلى أرقى المناصب، ولا بثروته وإن كان أغنى الأغنياء.

والمسلم المتواضع يحثه تواضعه على احترام الناس وحسن معاملتهم مهما قل شأنهم، وهو لا يبخل بخدماته عليهم، فهو يعمل دائمًا على راحة من حوله في أدب جم وتواضع عظيم؛ عملاً بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سيد القوم خادمهم".

١٢- مقام الرضا:

مقام الرضا من مقامات السلوك الصوفي الذي يسعى السالك للتحقق به فيكون راض النفس قانع بما أنعم الله عليه من نعم، قلت أم كثرت، وهو يرى في كل ما يتمتع به من إيمان وقرب من الله نعمة تغنيه عن كل النعم المادية واللذات الحسية.

وحقيقة الرضا شدة القناعة والبعد عن الطمع وإرهاق النفس وراء التطلعات التي لا تنتهي.

يقول الغزالي: " اعلم أنه ينبغي أن يكون الفقير قانعًا منقطع الطمع عن الخلق، غير ملتفت إلى ما في أيديهم ولا حريصًا على اكتساب المال، كيف كان؟ ولا يمكنه ذلك إلا أن يقنع بقدر الضرورة من المطعم، والملبس، والمسكن، ويقتصر على أقله قدرًا، وأخسه نوعًا، فلا يملئ جوف ابن آدم إلا التراب"(١).

وقال بشر الحافي (ت ٢٢٧ هـ) في الرضا : " لا تجد حلاوة العبادة، حتى تجعل بينك وبين الشهوات حائطًا من حديد"(٢).

وقال حاتم الأصم (ت ٢٣٧هـ): " من أصبح وهو مستقيم في أربعة أشياء فهو يتقلب في رضا الله: أولها الثقة بالله، ثم التوكل، ثم الإخلاص، ثم المعرفة ... والأشياء كلها تتسم بالمعرفة: العمل الصالح بغير رياء، والأخذ بغير طمع، والعطاء بغير مِنّة، والإمساك بغير بخل"(٣).

وقد استند الصوفية في تحققهم بمقام الرضا إلى مثل قوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ [المائدة: ١١٩] وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨].

---

(١) الغزالي: مكاشفة القلوب المقرب إلى حضرة الغيوب ص ١٠٩، ص ١١٠.

(٢) السلمي: الطبقات: ص ١٣.

(٣) السلمي: الطبقات : ص ٢٣.

أثر التحقق بمقام الرضا في التربية الأخلاقية للمسلم:

التحقق بمقام الرضا يكسب المسلم الصمود أمام ما يتعرض له من مكروهات، فهو يتقبل قضاء الله وقدره بصدر رحب، وأفق واسع ورضا كامل، وهذا يساعد على التكيف مع كل ظروفه الحياة حلوها ومرها.

وتحققه بالرضا يكسبه القناعة، ويخلق منه إنسانًا شكورًا مطمئن النفس، لا يقربه قلق، أو إحباط، أو اكتئاب نفسي، فهو دائمًا هادئ الأعصاب مطمئن البال قرير العين.

والمتحقق بمقام الرضا يتمتع بسعادة داخلية لا تفارقه، فهو سعيد بحاله قانع به، لا يشعر بالحرمان أو النقص، وإنما يشعر دائمًا بأنه أسعد حالاً من غيره، وأن نعم الله تغمره، وهو يعظم من شأن ما أنعم الله به عليه من نعم وإن كانت قليلة، وهو دائم الحمد والشكر لله، لا يقلقه نقص شيء من متاع الدنيا ولا يخيفه مرض.

وهو إنسان متفائل دائمًا ينظر إلى المستقبل نظرة متفائلة وهو على يقين بأن نعم الله زائلة، وأن النعيم المقيم والسعادة الدائمة في الدار الآخرة، وهو لا يتطلع إلى ما عند الآخرين ولا يحسدهم على ما هم فيه من خير.

١٣- مقام المحبة الشوق:

يتحقق الصوفي بمقام المحبة والشوق لله تعالى، فحب الله هو الغاية القصوى من المقامات والذروة العليا من الدرجات، فكما يقول الغزالي: "فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها، وتابع من توابعها، كالشوق والأنس والرضا وأخواتها، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها، كالتوبة والصبر والزهد وغيرها، ولا معنى للمحبة إلا بالمواظبة على طاعة الله"(١).

وحقيقة المحبة كما أوضحتها سلطانه العشق الإلهي رابعة العدوية (ت ١٨٥هـ) والتي هي السابقة بين الصوفية إلى وضع قواعد الحب في أشعارها، تقول عن حقيقة المحبة:

تَعصي الإِلَهَ وَأَنتَ تُظهِرُ حُبَّهُ ... هَذا لعَمري فِي الفِعالِ بَديعُ
لَو كانَ حُبُّكَ صادِقاً لَأَطَعتَهُ ... إِنَّ المُحِبَّ لِمَن يُحِبُّ يُطيعُ

فحقيقة المحبة هي طاعة الله، فلا معنى أن نحب الله ونعصاه، وكان حب رابعة العدوية لربها يتميز بأنه حب خالص لوجه الله، لا تبغي من ورائه منفعة أو دفع ضرر فهي تقول : "إلهي إذا كنت أعبدك رهبة من النار فأحرقني بنار جهنم، وإذا كنت أعبدك رغبة في الجنة فأحرمنيها، أما إذا كنت أعبدك من أجلك فلا تحرمني يا إلهي من جمالك الأزلي"(٢).

وقد سألها سفيان الثوري عن حقيقة إيمانها فأجابته بقولها : " ما عبدته خوفًا من ناره، ولا حبًا في جنته، فأكون كالأجير السوء، بل عبدته حبًا له وشوقًا إليه"(٣).

ويذهب الغزالي إلى أن مقام المحبة لله ولرسوله كسائر المقامات عنده يتكون من علم وحال وعمل ، والعلم: أن يعلم السالك أن الله هو مصدر جميع ما يتمتع به من نعم

---

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين ، ج٤ ص ٢٨٧ تحقيق د. بدوي طبانة.

(٢) انظر الغزالي : مكاشفة القلوب: ص ٢٨، وانظر أيضا: د. محمد مصطفى حلمي: الحياة الروحية في الأعلام ص ٧٩.

(٣) المرجع السابق، نفس الصفحة.

وخيرات في المال والبنون والبدن، وهو وحده سبحانه الجدير بالمحبة. والحال: الشعور بمدى عظمته، وأحقيته بالحب. والعمل: توجيه العواطف إلى حب الله، والغناء في عشقه تعالى، وذلك لا يكون إلا بالطاعات ومجاهدة النفس والعبادات والإخلاص في حب الله، والابتعاد عن الموانع والحجب التي تحول دون ذلك[١].

والمحبوب إما أن يكون له فضل على المحب أو يكون متعلق بوجوده كحبه لحياته، وحبه لأهله وولده ، أو يكون ذا منفعة له، أو يحب شيء يراه جميلا، أو يحب مبدأ أخلاقيًا.

ويرى الغزالي أنه إذا كانت هذه الأشياء هي أسباب المحبة فإنها جميعًا مجتمعة في الله تعالى فهو أحقها جميعًا بالمحبة.

ولا ريب أن كل مؤمن يحب الله، ولكن المحبة المقصودة هنا هي محبة خاصة القوم، يقول عبد الوهاب الشعراني عن المتحقق بمقام المحبة[٢]: "يكون ذا أشواق، وأتواق، واحتراق، ولهب، وأسف، وشغف، وحزن وأنين، ووجد، وفرق، واصطلام، وفناء، ومحو، وسكر، وصحو، وبقاء، ونحول، وذبول، وأرق، وقلق، وسهر، وسهاد، ووحدة، وغيبة، وسكون، وحركة، وكتمان سر، وإعلان شهود، وخمود وجمود، وإطراح وشجن، وغير ذلك من صفات المحب"[٣].

والصوفية المتحققين بمقام المحبة قد صححوا نسبة العبودية بالمحبة لذات الله والإخلاص التام، قال السهروردي في الحب: "خالص الحب هو أن يحب السالك الله تعالى بكليته"[٤].

---

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٤ ص ٢٨٨.

(٢) الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٤ ص ٢٨٨.

(٣) الشعراني: لطائف المنن والاخلاق ج٢ ص ٧٢.

(٤) السهروردي: عوارف المعارف ص ٣٤٩، القاهرة ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م.

وقد صنف الشعراني أنواع المحبة لله في ثلاثة هي:

١- محبة العوام: وهي تنشأ من مطالعة المنة ورؤية الإحسان، وصاحبها يرجو الثواب، ويخاف النار.

٢- محبة الخواص: وهي تنشأ من مطالعة شواهد الكمال في صاحبها من جهة التعظيم والإجلال لله، والمتحقق بها يطرح ما سوى الله تعالى من قلبه، متعلقًا بين النظر إلى جماله مرة وإلى جلاله مرة أخرى.

٣- ومحبة خواص الخواص: وهي الغاية القصوى، وهي محبة خالصة تنشأ من جميعة الحق الناشئة من المحبة القديمة في سر "كنت كنزًا مخفيًا فأحببت أن أُعرف فخلقت الخلق لأُعرف"[١] (حديث قدسي).

والمتحقق بمقام المحبة لا يجتمع في قلبه حب الله وحب الشهوات.

وسُئِلَ إبراهيم الخواص عن المحبة فقال : " محو الإرادات وإحراق جميع الصفات والحاجات، وإغراق نفسه في بحر الإشارات"[٢].

ويرتبط الشوق بالمحبة ارتباطًا كبيرًا فرسوخ الحب في قلب السالك يولد فيه شوقًا غامرًا لا ينطفأ، ويقول السهروردي في الشوق : " الشوق هيجان القلب عند ذكر المحبوب، وهو يتولد من حقيقة المحبة، لأن من أحب الله اشتاق إلى لقائه"[٣].

وسُئِلَ محمد بن الفضل البلخي (ت ٣١٩ هـ) عن ثمرة الشكر، فقال: الحب لله والخوف منه، وقال: الموافقة أصل المحبة[٤] وكما يحب المؤمنون ربهم فإنه يحبهم فإنه سبحانه يحب المتقين قال تعالى : ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [آل عمران: ٧٦] وقال تعالى : ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران: ١٣٤] ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩]

---

(١) عبد الوهاب الشعراني: لطائف المنن والأخلاق ج١ ص ٧٩.

(٢) الغزالي: مكاشفات القلوب ص ٢٨

(٣) السهروردي :جذب القلوب ص٢٢

(٤) السلمي: الطبقات ص ٥٠.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [المائدة: ٤٢] ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة : ٥٤].

وقد اتخذ الصوفية هذه الآية السابقة سندًا لمذهبهم في الحب الإلهي، واعتقدوا أنها تعنيهم على وجه الخصوص.

وقال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] وقال تعالى لرسوله (ص): ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

ومن الأحاديث القدسية التي استند إليها الصوفية في مقام المحبة قوله تعالى: "ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يسعى بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي ينطق، وبي يفعل، وبي يبطش، وبي يمشي...".

ومن الأحاديث النبوية قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن من عباد الله لأناسًا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم عند الله عز وجل، قال رجل: فمن هم؟ وما أعمالهم لعلنا نحبهم؟ قال صلى الله عليه وسلم: قوم يتحابون بروح الله عز وجل من غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها بينهم، واللهِ إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس، قالوا ثم قرأ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢]".

دور التحقق بمقام المحبة في التربية الأخلاقية للمسلم:

التحقق بمقام المحبة لله يهذب عواطف المسلم، ويرقق قلبه، ويرهف مشاعره، ويثلج صدره، وكما قالت رابعة العدوية:

إِنَّ المُحِــبَّ لِمَــن يُحِــبُّ يُطيــعُ

فمحبة الله داعية إلى طاعته، بل إن الطاعة هي دليل المحبة.

والمتحقق بمقام المحبة يغلب عليه الجانب الروحاني أكثر من الجانب المادي والعقلاني، وليس معنى هذا أنه يحكم على الأشياء بعواطفه دون عقله، وإنما يقترن العقل عنده بالعاطفة، وتكون الغلبة للعاطفة، وهو مع معرفته بقيمة المادة لا يجعلها شاغله، ولا يوليها أكبر اهتمامه، وتستهويه الجوانب المعنوية في الأشياء، والمبادئ الخلقية السامية، ويعتقد في الروحانيات ويؤمن بأهمية التفكير الميتافيزيقي، ويبحث عن العلل البعيدة، وهو يأنس بالله ودائم الذكر له.

والمسلم المتحقق بمقام المحبة والشوق يتمتع بقلب كبير، يحب الله، ويتفانى في التقرب إليه بالعبادات والطاعات والمجاهدات والرياضات الروحية، ويحب الناس، ويتغاضى عن عيوبهم.

وإذا أساء إليه أحد قابل السيئة بالحسنة، فهو رحب الصدر هادئ الطبع لا يثور ولا يغضب، وينشأ علاقات طيبة مع من حوله، ويكون جليسًا صالحًا ودودًا يغمر من حوله بعواطفه ورقة شعوره، ويتمنى للجميع الخير، ويعمل على إرضائهم، وهو بدوره شخصية محبوبة من الله ومن الناس.

١٤- مقام المراقبة والمحاسبة:

ويتحقق السالك للطريق الصوفي بمقام المراقبة لنفسه ومحاسبتها بشكل مستمر حتى لا يعطيها فرصة للعودة إلى سابق عهدها قبل المجاهدة.

وحقيقة المراقبة: أن يشهد السالك أن الله رقيبه وشاهده، فهو يرى أن الله معه دائمًا، ومن هنا فهو يحاسب نفسه على أقوالها وأفعالها، ويرقبها بشدة حتى لا تسقط في هاوية الشهوات والأهواء.

وبذلك فهو لا يأتي من الأفعال والأقوال إلا ما يقربه إلى الله ويوصله إلى حضرته.

ومن شروط المراقبة: دوام حضور القلب مع الله، وعدم الغفلة، فيكون سبحانه وتعالى دائم التجلي على قلب المتحقق بهذا المقام، فلا تتعارض إرادته مع إرادة الله.

وإذا استقام السالك في مقام التوبة فإن مقام المراقبة والمحاسبة يصح له.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: " حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الكبير على الله" وقرأ قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة: ١٨] (١).

يقول السهروردي: " وشرط حصول المحاسبة بحفظ الأنفاس، وضبط الحواس، ورعاية الأوقات، وإيثار المهمات"(٢).

ورياضة الصلاة تساعد السالك على التحقق بمقام المراقبة والمحاسبة، يقول السهروردي : "فالصلوات الخمس سلسلة تجذب النفوس إلى مواطن العبودية لأداء حق الربوبية، ويراقب العبد نفسه بحسن المحاسبة من كل صلاة إلى صلاة أخرى، ويسد مداخل الشيطان بحسن المحاسبة والرعاية، ولا يدخل في الصلاة إلا بعد حل العقد عن القلب بحسن التوبة والاستغفار، لأن كل حركة وكلمة على خلاف الشرع تنكت في القلب نكتة سوداء وتعقد عليه عقدة"(٣).

---

(١) السهروردي: عوارض المعارف ص ٣٤٠.

(٢) السهروردي : عارف المعارف : ص ٣٤٠.

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة.

وقال الجنيد (ت ٢٩٧ هـ): " من حسنت رعايته دامت ولايته "[١].

وقال الغزالي : " المراقبة هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهمم إليه"[٢].

والمراقبة عنده علم[٣] وحال وعمل.

العلم بأن الله مطلع على الضمائر، عالم الأسرار والسرائر، رقيب على أعمال العباد، قائم على كل نفس بما كسبت، وأن سر القلب في حقه مكشوف.

والحال: شعور السالك بأن الله مطلع على سره وظاهره.

والعمل: أن يقوم الإنسان بجميع أعماله ويقول كل أقواله وهو موقن أن الله يراه، فلا يعمل ما يغضبه ويأتمر بما أمر وينتهي بما نهى[٤].

ومن الآيات القرآنية التي استند إليها الصوفية في مقام المراقبة والمحاسبة قوله تعالى : ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: ١١٢] وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿١٣﴾﴾ [هود:٩٣] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾ [النبأ: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾ [النساء: ٦].

---

(١) الغزالي : إحياء علوم الدين ج٤ ص ٢٨٤، تحقيق د. بدوي طبانة.

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٣٢.

(٣) المرجع السابق ، ج٤ ص ٣٨٤.

(٤) الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٤ ص ٣٨٤ ، نشر د. بدوي طبانة.

أثر التحقق بمقام المراقبة والمحاسبة في التربية الأخلاقية للمسلم:

إن التحقق بمقام مراقبة النفس ومحاسبتها يربي في المسلم اليقظة التامة تجاه نفسه، فهو لا يغفل عنها، ولا يتهاون في التمسك بمبادئه، ولا يترك لنفسه فرصة للانحراف عن طريق الصواب، فهو إنسان طائع لله يقدم على الأعمال الصالحة، وقد أخذ على نفسه عهدًا ألا يحيد من شرع الله، فهو لا يميل مع الهوى ولا يتأثر بالمغريات ويتجنب أقران السوء.

ودائمًا يقيم أفعاله ويحاسب نفسه على كل ما بدر منه من أقوال أو أفعال؛ ليرى ماذا قدم من عبادات وطاعات، ليتيقن من أنه لم يقصر في أداء العبادات على قدر طاعته، وأنه قد ائتمر بما أمر الله وانتهى عما نهى جلا جلاله.

ولمعرفة ماذا قدم لمن حوله ولأسرته وأهله ومجتمعه، هل هو أفادهم في شيء؟ هل قام بحقوقهم عليه؟ هل أحسن إليهم؟ هل أساء إليهم؟

وتلك المراقبة والمحاسبة الدقيقة للنفس تثمر ثمارها، فهي تحمي المسلم من الانحراف من طريق الصواب وتنبهه إلى مواطن الضعف، وتعصمه من الزلل، فهو في حالة تقويم وتقييم دائم لسلوكه.

كما أن التحقق بمقام المراقبة المحاسبة ينمي لديه القدرة على اكتشاف عيوبه فينشغل بها عن مراقبة غيوب الناس ويعمل على تجنبها وهو بذلك يتحصن عن الخطيئة ويتولد فيه حب الحق والعدل، والخير ويكون لديه قدرة جبارة على العمل الصالح.

١٥- مقام الصبر:

الصوفي السالك الطريق إلى الله يصحح مقومات سلوكه بالتحلي بالصبر والتحقق بالشكر.

يقول الغزالي: "فإن الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر، كما أن الصبر والشكر اسمان من أسماء الله الحسنى؛ إذ سمي نفسه تعالى: صبورا، شكورا"(١).

فالصبر: هو ثبات باعث الدين في مقابل باعث الشهوة؛ فإن ترك شهوات النفس يثمر الصبر.

والمتحقق بمقام الصبر يصبر على الشدائد ويتحملها دون كلل أو تبرم أو شكوى مع انتظار الفرج من الله.

يقول السهروردي: "الصبر ثمرة امتلاء زوايا القلب من المحبوب، ونتيجة لاضمحلال الرسوم، فهو جلوس النفس على مجاري القضاء وعدم الشكوى واستلذاذ البلوى"(٢).

ويقول يحيى بن معاذ الرازي (ت ٣٥٨ هـ): "الصبر على الخلوة من علامات الإخلاص"(٣).

وقال منصور بن عماد: "من جزع من مصائب الدنيا تحولت مصيبته في دينه"(٤).

ويقول أبو حيان التوحيدي (٣١٠ هـ - ٤١٤هـ): "على قدر الصبر على الشدائد والمكاره يكون الظفر بالمطالب والمنازه"(٥).

ومن الآيات القرآنية التي استند إليها الصوفية في التحقق بمقام الصبر قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ

---

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٤ ص ٥٩.

(٢) السهروردي: عوارض المعارف ص ٤٤٣.

(٣) السلمي: الطبقات ص ٢٦

(٤) المرجع السابق، ص ٣١

(٥) أبو حيان التوحيدي: الإشارات الإلهية، ص٢٠٧، تحقيق د. عبد الرحمن بدوي.

حِسَابٍ ﴿١٠﴾ [الزمر : ١]، وقوله تعالى : ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾ [البقرة: ٢٥٠]، وقوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ﴿٥﴾﴾ [المعارج: ٥]، وقوله تعالى: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

أثر التحقق بمقام الصبر على التربية الأخلاقية للمسلم:

لا ريب أن التحقق بمقام الصبر يقوي عزيمة المسلم، ويشد من أذره، ويخلق فيه القدرة على التحمل والتصميم على السير في الطريق المستقيم رغم ما يصيبه من مكاره وما يقابله من صعاب، فهو لا يستسلم بسهولة.

والمتحقق بمقام الصبر يكتسب صلابة أمام نوائب الدهر وما يتعرض له من أزمات، فهو لا ينهار، ولا يقنط من رحمة الله، ولا يتسرب اليأس إلى قلبه، وهو من المتحققين بالرضا بقضاء الله وقدره بصدر رحب في صمود.

وهو إنسان مستبشر دائمًا بالخير، لا تصيبه الكآبة والقلق، ولا يتمرد على ما يحدث له من مكاره، ويجانبه التهور وشدة الانفعال والندم، كما أن شدة صبره تولد لديه الطاقة اللازمة لكي يتخلص من فشله، وسيلة للنجاح.

وهو إنسان قليل الشكوى، وإذا اشتكى فيكون لربه وليس للناس؛ لأنه كبير الثقة في رحمة الله وكرمه، ولأنه شديد الإيمان بأن مع العسر يسرا، ويكون لهذا كله صدى في معاملة الآخرين من حوله، فهو يصبر على قرناء السوء، ويكون صدره أكثر رحابة في التعامل مع الناس عامة، ويتحمل ما قد يصيبه منهم من أذى أو فظاظة في الأقوال والأفعال.

وهو أكثر الناس سماحة وجلد، ويحث من حوله على تحمل مصائبهم ويواسيهم ويشد من أزرهم.

تلك أهم المقامات الصوفية وليس حصرًا لها، والمتحقق بهذه المقامات تحدث له أحوال ترد عليه دون تعمد منه.

وسنتبين معًا بعض هذه الأحوال وارداتها.

بقي أن نقول: إن الصوفي في سلوكه طريق القوم يقتدي بشيخ متحقق من الصوفية الكمل ويرشده ويعلمه ويأخذ بيده في سلوك الطريق إلى الحضرة الإلهية وإلا ضل الطريق ولم يصل.